

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى
 أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ
 خَالِدُونَ﴾ [التوبة: 17]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

العلاقة بين عدم
 اتخاذ الوليعة
 من دون الله،
 وكون الإيمان
 أساس القبول
 والقرب

لَمَّا حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اتِّخَاذِ وَلِيْعَةٍ مِنْ دُونِهِ؛ شَرَعَ بَيِّنٌ
 أَنَّ الْوَلِيْعَةَ الَّتِي يَتَّخِذُهَا بَعْضُهُمْ لَا تَصْلُحُ لِلْعَاطِفَةِ، بِمَا اتَّصَفَتْ بِهِ
 مِنْ مَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ مَا لَمْ تَوْضَعْ تِلْكَ الْمَحَاسِنُ عَلَى الْأَسَاسِ الَّذِي
 هُوَ الْإِيمَانُ الْمُبِينُ بِدَلَالَتِهِ، فَكَأَنَّ قَائِلًا قَالَ مُسْتَفْهِمًا: إِنَّ فِيهِمْ مِنْ
 أَفْعَالِ الْخَيْرِ مَا يَدْعُو إِلَى الْكَفِّ عَنْهُمْ مِنْ عِمَارَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
 وَخِدْمَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ، فَقَالَ فِي الْجَوَابِ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (1).

وَأَيْضًا: لَمَّا بَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى السُّورَةَ بِذِكْرِ الْبَرَاءَةِ عَنِ الْكُفَّارِ، وَبَالَغَ
 فِي إِجَابِ ذَلِكَ، وَذَكَرَ مِنْ أَنْوَاعِ فُضَائِحِهِمْ وَقَبَائِحِهِمْ مَا يُوْجِبُ
 تِلْكَ الْبَرَاءَةَ؛ رَدَّ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا مَا احْتَجُّوا بِهِ مِنْ
 الشُّبْهِ فِي أَنَّ هَذِهِ الْبَرَاءَةَ غَيْرُ جَائِزَةٍ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْمَخَالَطَةُ
 وَالْمَنَاصِرَةُ حَاصِلَةً، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ مَوْصُوفُونَ بِصِفَاتٍ حَمِيدَةٍ وَخَصَالٍ
 مَرْضِيَّةٍ، وَهِيَ تَوْجِبُ مَخَالَطَتَهُمْ وَمَعَاوَنَتَهُمْ وَمَنَاصِرَتَهُمْ، وَمِنْ جَمَلَةِ
 تِلْكَ الصِّفَاتِ كَوْنُهُمْ عَامَرِينَ لِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (2).

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿يَعْمُرُوا﴾: الْعِمَارَةُ: نَقِيضُ الْخَرَابِ، يُقَالُ: عَمَرَ أَرْضُهُ
 يَعْمُرُهَا عِمَارَةً، وَعِمَارَةُ الْمَكَانِ تَكُونُ: إمَّا بِالْبِنَاءِ فِيهِ، وَإِمَّا بِزِيَارَتِهِ،
 أَيْ: مِنَ الْعُمْرَةِ الَّتِي هِيَ الزِّيَارَةُ، وَإِمَّا بِالْإِقَامَةِ فِيهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/400.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/8.

عَمَرْتُ بِمَكَانٍ كَذَا، أَي: أَقَمْتُ بِهِ، وَمِنْهُ: عَمَرَ الْمَنْزَلَ: سَكَنَهُ، وَعَمَرَ بَيْتَهُ: لَزِمَهُ، وَيُقَالُ أَيْضًا عَمَرَ الدَّارَ: بَنَاهَا، وَمَعْنَى (يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ): يَدْخُلُ الْمَسَاجِدَ، وَيَمْكُثُ فِيهَا، أَوْ يَرْفَعُ بِنَاءَهَا، وَيُصْلِحُ مَا تَهَدَّمُ مِنْهَا، أَوْ يَتَعَبَّدُ فِيهَا بِالطَّوَّافِ وَالصَّلَاةِ بِهَا⁽¹⁾.

(2) ﴿حَبِطْتُ﴾: يَدُورُ مَعْنَى الْحَبِطِ عَلَى الْإِبْطَالِ وَالْأَلَمِ، فَأَمَّا الْإِبْطَالُ؛ فَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: حَبِطَ عَمَلُهُ، وَذَلِكَ إِذَا عَمِلَ الرَّجُلُ عَمَلًا، ثُمَّ أَفْسَدَهُ، وَأَمَّا الْأَلَمُ؛ فَمِنْهُ: حَبِطَ الْبَعِيرُ، وَهُوَ الْوَجَعُ الَّذِي يَأْخُذُهُ لِكَثْرَةِ الْأَكْلِ حَتَّى يَنْتَفِخَ بَطْنُهُ، وَالظَّاهِرُ: أَنَّ حَبِطَ الْعَمَلِ يُبْطِلَانَهُ مَأْخُودٌ مِنْ حَبِطِ الْبَطْنِ بِمَعْنَى الْأَلَمِ الَّذِي يُؤْوِلُ إِلَى الْهَلَاكِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْحَبِطِ يَهْلِكُ، وَكَذَلِكَ عَمَلُ الْمُنَافِقِ وَالْمُشْرِكِ يَحْبِطُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فِي اللَّفْظِ: أَنَّ بَاءَ الْمَصْدَرِ فِي حَبِطِ الْعَمَلِ سَاكِنَةٌ، فَيُقَالُ: حَبِطَ عَمَلُهُ حَبِطًا، وَفِي الْحَبِطِ الَّذِي بِمَعْنَى الْوَجَعِ مُتَحَرِّكَةٌ، فَيُقَالُ: حَبِطَ الْبَعِيرُ بَطْنُهُ يَحْبِطُ حَبِطًا⁽²⁾، وَمَعْنَى ﴿حَبِطْتُ﴾: بَطَلْتُ⁽³⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

مَا صَحَّ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَهُمْ شَاهِدُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ذَلِكَ، أُولَئِكَ الْمَشْرُكُونَ الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ بَطَلَتْ أَعْمَالُهُمُ الَّتِي يَظُنُّونَهَا خَيْرًا، وَذَهَبَتْ أَجُورُهَا، وَفِي النَّارِ هُمْ مَآكُثُونَ أَبَدًا، لَا أَحْيَاءَ وَلَا أَمْوَاتًا، فَالْمَسَاجِدُ إِنَّمَا تَعْمَرُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ فِيهَا، لَا لِلْكَفْرِ بِهِ، فَمَنْ كَانَ بِاللَّهِ كَافِرًا، فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَعْمَرَ مَسَاجِدَ اللَّهِ⁽⁴⁾.

المشركون
لا يعمر
مساجد الله،
بل إن أعمالهم
باطلة؛
والمساجد تُعمر
بالإيمان لا
بالكفران

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، اللعجم الاشتقاقى للؤضل: (عمر)، وأبو حيان، البحر الحيط: 5/387.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّاعِب، للفردات: (حبط).

(3) السجستاني، غريب القرآن، ص: 186، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 106.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/165.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

مناسبة التعبير بـ ﴿مَا كَانَ﴾:

أعمال البر
للمشركين
كالعدم عند
الله؛ لكفرهم
به ﷻ

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾،
لما كان لفظُ (ما) يأتي ردًّا على قول، أو ما نُزِّلَ هذه المنزلة،
أو تصحيحًا لظنٍّ⁽¹⁾؛ جاء التعبير بـ ﴿مَا كَانَ﴾ ردًّا على ما قاله
المشركون من أنهم عمّروا المسجد الحرام بناءً وسقايةً للحجيج، أو
ما كانوا يظنون أنه من أنهم عمّروا المسجد الحرام، فأفاد أن فعلهم
كالعدم لكفرهم بالله تعالى.

دلالة ﴿مَا كَانَ﴾ في الآية:

إعمارُ المشركين
مساجدَ الله
بمنايةِ العدم؛
لأنه لا يعتدُّ به

الأصل في دلالة تركيب (ما كان) أنه يفيد نفي الوجود، ولما كان
العَمَارُ حاصلًا وواقعًا، كما يدلُّ عليه قوله تعالى الآتي: ﴿أَجْعَلْنَاهُ
سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ - دلَّ على أن المراد لازمه،
ليطابق الواقع، والمعنى: ما صحَّ أو ما استقام، ويمكن الحمل على
نفي اللياقة، أي: ما يليق للمشركين أن يعمرُوا مساجدَ الله، وليسوا
أهلًا له، مثل قول القائل: (ما ينبغي)⁽²⁾، ويمكن اجتماع هذه المعاني
في هذا المقام، فيكون المعنى: ما صحَّ للمشركين أن يعمرُوا مساجدَ
الله، وما استقامَ لهم ذلك في دين الله وشرعه، وما كان يليق بهم
أن يعمروها، ونُكِّتَ التعبير بـ ﴿مَا كَانَ﴾ دون أن يقول: (ما صحَّ)
مثلًا؛ هو الإشعارُ أن إعمارَ المشركين مساجدَ الله بمنزلةِ العدم،
فيؤول المعنى إلى عدم الاعتداد به.

أو عبَّرَ بهذا الأسلوب في النفي دون أن يقول: (ما صحَّ للمشركين
أن يعمرُوا مساجدَ الله) مثلًا؛ لأنَّ النَّفْيَ في مثل هذا التعبير يسمَّى

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/366.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/253، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/74، والشهاب
الخفاجي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 4/538، والقنوي، حاشيته على تفسير البيضاوي:

9/177، والقنوي، فتح البيان: 5/251.

نفي الشَّأن، وهو أبلغ من نفي الفعل طبعاً أو شرعاً؛ لأنَّه نفي له بالدليل، أي: بسبب إشراكهم بالله وكفرهم به (1).

دلالة التعريض في الآية:

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، تعريضٌ بأنَّه كان على المشركين توحيدُ الله قبل عمارة بيوته؛ إذ إنَّ المصدر المؤوَّل ﴿أَنْ يَعْمُرُوا﴾ اسم لـ (كان) و﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ خبرٌ لها؛ فلما جاء الخبرُ بصيغة المشتقِّ؛ دلَّ ذلك على عليَّةِ المأخذِ وسببِ الحكم بنفي الصَّحَّةِ أو الاعتدادِ، والمعنى: سببُ نفي صحَّةِ عمارتهم مساجدَ الله والاعتدادِ بها هو إشراكهم بالله.

سبب إثارة التعبير بصيغة المشتقِّ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾:

عُبرَ بالوصف دون الفعل؛ لأنَّ جماعةً ممَّن أشركَ أسلمَ بعد ذلك، فصارَ أهلاً لما نفي عنهم؛ ليفيد أنَّ المراد: من اتَّصفوا بالشُّرك، وثبتوا عليه، فيخرجَ من الحكمِ من أشركَ، ثمَّ أسلمَ (2).

مناسبة التعبير بلفظ (المشركين):

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يقل: (ما كان للكافرين)؛ لأنَّ الكلامَ في عمارةِ مساجدِ الله التي هي موضعُ عبادةِ الله وتوحيده وتنزيهه، فذكرَ لفظَ الشُّركِ المنافي لعمارَتهم مساجدِ الله.

بلاغة تقديم المسند على المسند إليه:

قدَّم المسندُ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ على المسندِ إليه ﴿أَنْ يَعْمُرُوا﴾ لإفادة التَّخصيصِ والاهتمامِ، بمعنى: نفي صحَّةِ عمارةِ مساجدِ الله والاعتدادِ بها مختصَّ بالمشركين، وفي هذا الحصرِ كنايةٌ، وبيانه: أنَّه لما كانت القسمةُ ثنائيةً، - أي: إنَّ قسيمَ المشركين هم المسلمون -

على المشركين
توحيدُ الله قبل
البدءِ بعمارة
بيوته

من أشركَ ثمَّ
أسلمَ طابَ
عمله، وصحَّ
إعمارُه مساجدَ
الله تعالى

الإشراكُ ينافي
عمارةَ مساجدِ
الله تعالى؛
لأنَّها موضعُ
عبادته وتوحيده

إعمارُ المسلمين
مساجدَ الله
صحيحٌ ومعتدٌّ
به عند الله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/50، ومحمد رضا، تفسير النار: 186/10.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/400.

دلَّ على أَنَّ للمسلمين أن يعمرُوا مساجدَ الله، بمعنى صَحَّةِ إعمارهم والاعتداد به عندَ الله، وأَنَّهُ سبحانه سيجزيهم عليه جزاءً حسنًا.

دلالة لفظِ ﴿يَعْمُرُوا﴾:

عمارة المساجد
ببنائها، والكتبة
فيها للعبادة
والذكر

ذهب بعضُ المفسرين إلى أَنَّ المرادَ من اللفظِ بناءُ المساجدِ وإقامةُ جدرانها، أي: تعميرُها، وذهب آخرونَ إلى أَنَّ المرادَ الحضورُ في المساجدِ والعبادة فيها؛ لأنها إِنَّمَا وضعت للعبادة، فإعمارها بمنَّ يحلُّ فيها من المتعبدين، ويؤيِّده مجيءُ قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾، ويمكن الجمعُ بينهما: بأنَّ يكون المرادُ البناءُ والحضورُ فيها بالعبادة، أي: على سبيلِ الجمعِ بين العمارة الحسية والمعنوية، فكلُّ ذلك مرادٌ هنا؛ لأنَّ اللفظَ يدلُّ عليه والمقامُ يقتضيه، كما يمكن أن يكونَ على سبيلِ البدلِ، والمعنى: نفى صَحَّةِ بنائهم مساجدَ الله والعبادة فيها بسببِ كفرهم، ونفي صَحَّةِ عملٍ كلِّ واحدٍ منهما على الانفراد من قبلِ المشركين بسببِ كفرهم كذلك⁽¹⁾.

نكتة التعبير بصيغة الجمع في لفظ: ﴿مَسْجِدَ﴾:

المسجد الحرام
قبلة المساجد
وإمامها،
وعامره كأنما
عمر مساجد
الله كلها

لما كان المرادُ هو المسجد الحرام - إذَّ هو الذي عَمَرَهُ المشركون قبل نزول القرآن - كان مجيءُ صيغةِ الجمعِ على خلاف مقتضى الحال، والنُّكتةُ فيه: أَنَّهُ لما كانَ قِبْلَةُ المساجد وإمامها، فعامره كأنَّه قد عمرَ مساجدَ الله كلها، أو يقال: جاء اللفظُ بصيغةِ الجمع؛ لأنَّ كلَّ ناحيةٍ من نواحيه المختلفةِ الجهاتِ مسجدٌ على حياله، بخلاف سائرِ المساجدِ، إذَّ ليسَ في نواحيها اختلافُ الجهة، ويؤيِّده القراءةُ بالإفراد، كما سيأتي، أو يقال: لما كان الجمعُ المضافُ في سياق النَّفْيِ دخلَ فيه المسجدُ الحرامُ دخولًا أوليًا، وهو أكْدُ من أن يصرَّحَ بالمسجد الحرام؛ إذَّ نفي الجمعِ يدلُّ على النَّفْيِ عن كلِّ فرد، فيلزم

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/323، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/9، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/385، ومحمد رضا، تفسير النار: 10/187، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/140.

نفية عن الفرد المعين بطريق الكناية، كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتاب الله، كنت أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك، وأيضاً لما كان المعنى: ما كان للمشركين أن يعمرُوا شيئاً من مساجد الله، كان الأولى ألا يُمكنوا من عمارة المسجد الحرام الذي هو أشرف المساجد وأعظمها⁽¹⁾.

دلالة الإضافة:

في قوله تعالى: ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾، جاءت الإضافة على معنى اللام؛ ليفيد تخصيص المساجد بالله تعالى، كما أن في ذكر الاسم الجليل تشريفاً للمساجد بإضافتها إليه سبحانه، وفي الإضافة إلى الاسم الجليل (الله) إيذاناً بأنه المنزه عن الشريك، المتصف بصفات الكمال، ففيه تعجب من حال المشركين، إذ يعمرّون مساجد الله الواحد الأحد، وهم مشركون به سبحانه.

التعجب من
حال من يعمر
مساجد الله
الأحد، وهو
المشرك الألد

توجيه قراءتي ﴿مَسْجِدَ﴾ و﴿مَسْجِدَ﴾:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿أَنْ يَّعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ بتوحيد ﴿مَسْجِدَ﴾، أي: بإفراده، وقرأ الباقر بالجمع، أي: ﴿مَسْجِدَ﴾⁽²⁾، وتقدم نكتة التعبير بلفظ الجمع، وأما وجه الإفراد؛ فهو أن يكون المراد المسجد الحرام، وعليه الجمهور، وهو الأولى بأن يتصف بأنه مسجد الله، والأحق به، ويؤيد قراءة الإفراد قوله تعالى في السياق نفسه: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ عَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 19]، ويحتمل أن يراد بالإفراد الجنس، فيعم المساجد كلها، فيكون موافقاً لقراءة الجمع

الإفراد على أنه
المسجد الحرام،
أو الجنس،
والجمع على
تعدد جهاته

(1) المزمخشري، الكشف: 2/253، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/9، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/385، والتيسابوري، غرائب القرآن: 3/442، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/50، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/362.

(2) الأزهري، معاني القراءات: 1/448، وابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 313، وابن الجزري، النشر: 2/278.

في المعنى، ولا يمنع من إرادة الجنس إضافته، فيدخل تحت الجنس المسجد الحرام دخولاً أولياً، إذ هو صدر ذلك الجنس ومقدمته⁽¹⁾.

دلالة الحال في جملة الشهادة على أنفسهم بالكفر:

قوله: ﴿شَهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾، فيه أنه لما كان قوله: ﴿شَهِدِينَ﴾ حالاً من الضمير في ﴿يَعْمُرُونَ﴾ وكان الحال على معنى الاقتران بصاحبه؛ دل على أنهم كانوا شاهدين على أنفسهم بالكفر في حال إعمارهم مساجد الله، ليكون تقريراً لما تقدم من أن التعبير بالمشركين هو بيان لسبب الحكم بنفي الصحة والاعتداد وتأكيده له، وفائدة مجيء الحال هو الإيدان بعظم كفرهم، وبيانه: أنه لما كان الكفر مبطلاً للأعمال الثابتة الصحيحة؛ إذا تعقبها كان اقتران الكفر بها أكثر إبطالاً وأشد، فدل الحال على أنهم قارنون بين العمارية والشهادة بالكفر على أنفسهم في حال واحدة، وذلك محال غير مستقيم⁽²⁾.

بلادة الاستعارة:

قوله: ﴿شَهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾، ليس المراد أنهم شهدوا على أنفسهم بالمقال بكونهم كافرين، ولكنه جاء بطريق الاستعارة؛ ليكون الكلام مقترناً بالحجة والدليل على كفرهم، فقد شبهوا حال إظهارهم آثار الشرك من نصب الأوثان حول البيت والعبادة لها بمن يشهد على نفسه بالقول بالكفر، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية؛ فإن من أظهر فعلاً؛ فكأنه شهد به على نفسه، وإن أبوا أن يقولوا: نحن كفار، بل هذا أقوى من الشهادة بالقول، فنكتة تقييد الحال بالكفر بيان أنه كفر صريح معترف به لا يمكن المكابرة فيه⁽³⁾.

(1) ابن عطية، للحزر الوجيز: 3/15، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/9، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/385، والسمين الحلي، عمدة الحفاظ: 6/29.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/254، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/386.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/50، والقنوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/178، ومحمد رضا، تفسير النار: 10/188.

الكفر مبطل
لأعمال إذا
اقترن بها، وبه
تحبط القربات

الشهادة بالكفر
العملي، أصرح
منها بالقول
اللفظي

نكتة التعبير بلفظ ﴿شَهِدِينَ﴾:

لَمَّا كَانَتِ الشَّهَادَةُ بِمَعْنَى الْإِقْرَارِ عُبِّرَ بِهَا، فَإِذَا كَانَتِ الشَّهَادَةُ عَلَى النَّفْسِ؛ كَانَتْ أَعْلَى مَرْتَبَةً مِنْ مَرَاتِبِ الْإِقْرَارِ، وَالْمَعْنَى: شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِإِظْهَارِ آثَارِ الشُّرْكِ مِنْ نَصَبِ الْأَوْثَانِ حَوْلَ الْبَيْتِ وَالْعِبَادَةِ لَهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ شَهَادَةٌ صَرِيحَةٌ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ، وَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَقُولُوا: نَحْنُ كَفَّارٌ.

شهادة الشَّاهِدِ
على نفسه،
أعلى مراتب
الإقرار

دلالة الباء في قوله: ﴿بِالْكَفْرِ﴾:

لَمَّا كَانَ أَصْلُ مَعْنَى الْبَاءِ هُوَ الْإِلْصَاقُ وَالِاخْتِلَاطُ⁽¹⁾؛ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى: (شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالتَّصَاقِ الْكَفْرِ وَاخْتِلَاطِهِ بِهِمْ)؛ لِيَكُونَ الْإِلْصَاقُ عَلَى الْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ لِلْبَاءِ، تَشْبِيهًا لْكَفْرِهِمْ بِالشَّيْءِ الَّذِي يُلَزِّقُ، وَيَلْصِقُ، إِشْعَارًا بِشِدَّةِ كَفْرِهِمْ وَتَوَغُّلِهِ فِيهِمْ، وَعَدَمِ انْفِكَائِهِ مِنْهُمْ وَقْتَ عِمَارَتِهِمُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، لِيَكُونَ مِنْ أَظْهَرِ الشَّهَادَاتِ وَأَصْرَحِهَا.

المبالغة في
بيان شِدَّةِ
كفر الكافرين
ولصوقه بهم

نكتة التعبير بلفظ ﴿بِالْكَفْرِ﴾:

لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ أَدْنَى أَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ إِشْرَاكِهِمْ بِاللَّهِ وَكَفْرِهِمْ بِهِ، وَهُوَ أَشَدُّ الْكَفْرِ وَأَقْبَحُهُ، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا جَعَلَ شَهَادَتَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ نَاسَبَ أَنْ يَأْتِيَ بِلَفْظِ (الْكَفْرِ) لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُمْ غَطَّوْا فِطْرَتَهُمُ الَّتِي فِي أَنْفُسِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ.

أشدُّ الكفر
قبحًا، الجمعُ
بين الإِشْرَاكِ
بالله تعالى
والكفر به

دلالة اسم الإشارة: ﴿أُولَئِكَ﴾:

عُبِّرَ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ، لَتَمْيِيزِهِمْ بِوَصْفِ الشَّهَادَةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أَكْمَلَ تَمْيِيزَ، وَلِلإِذَانِ بِأَنَّ الْمَشَارَ إِلَيْهِمْ هُمُ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَدْعُونَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ وَمَا يَضَاهِيهَا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ مَعَ مَا بِهِمْ مِنَ الْكَفْرِ، لِيَكُونَ اسْمُ الْإِشَارَةِ بِمَنْزِلَةِ بَيَانِ السَّبَبِ لِلإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِحَبِطِ

تمييزُ الكافرين
بأوضح
أوصافهم،
ليتجنَّبَها
المؤمنون

(1) سيبويه، الكتاب: 4/217.

عملهم، أي: شركهم وكفرهم أبطل أعمالهم وأذهب ثوابها⁽¹⁾، ولما كان اسمُ الإشارة «أُولَئِكَ» للبعيد؛ دلَّ على بُعْدِهِم عن الخير وعن قبولِ العمل والِإِثَابَةِ عليه.

بلغة الاستعارة:

في قوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، عبَّرَ عن بطلانِ أعمالهم وعدم إنتاج ثمرتها بالحَبْطِ على طريق المجاز؛ ليكون استعارةً تصرّحيةً تبعيّةً، فشَبَّهَ حالَ من عمل أعمال البرِّ، فلم يجد لها أثرًا نافعًا بالماشية التي تأكل الخَضِرَ شهوةً للشَّبع، فيؤوّل عليها بالهلاك لما يصيبها من الحَبْطِ، وهو وجع البطن؛ للإشعار بأنَّهم كانوا يتلذذون بأعمالهم، ويفتخرون بها كما يتلذذ الحيوانُ بالأكل، وهو غيرُ نافع، والحبوطُ يفيدُ البطلانَ الذي يكون ناشئًا من ذات العمل، فبطلانُ أعمالهم ناشئٌ من ذاتها؛ لأنَّ أساسها قائمٌ على الكفر بالله⁽²⁾.

بلغة الكناية في الاستعارة:

في استعارة لفظ ﴿حَبِطَتْ﴾ كنايةً عن عدم الانتفاع بأعمالهم، وبيانه: أنَّه لما كانت أعمالهم قد وَقَعَتْ ووُجِدَتْ مثل إعمار المسجد الحرام والسَّقَاية وغيرهما؛ دلَّ على أنَّ المرادَ من حَبِطِ أعمالهم لازمُهُ، وهُوَ زوالُ آثارها المَجْعولة المرتبة عليها شرعًا وعدم انتفاعهم بها، فيشملُ عدمَ انتفاعهم بآثارها في الدُّنيا وبالْثَّواب في الآخرة، والمعنى: أذهبَ الشركُ ثوابَ أعمالهم⁽³⁾.

سببُ إِيثارِ صيغة الجمعِ في قوله: ﴿أَعْمَلُهُمْ﴾:

عبَّرَ بصيغة الجمعِ للإشعارِ بعمومِ جميعِ ما صدر عنهم من

بطلانُ أعمالِ
الكافرين ناشئٌ
من ذاتها؛ لأنَّ
أساسها قائمٌ
على الكفر بالله

حَبِطُ الأعمال
بمعنى عدم
الانتفاع بآثارها
في الدُّنيا
وبالْثَّواب في
الآخرة

(1) الرَّجَاجُ، معاني القرآن وإعرابه: 2/437، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3251.

(2) الزَّمَخْشَرِيُّ، أساس البلاغة: (حبط)، والبِقَاعِيُّ، نظم الدرر: 8/410، وابن عاشور، التحرير والتنوير:

2/332، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3251.

(3) الرَّجَاجُ، معاني القرآن وإعرابه: 2/437، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/332.

أعمال البرِّ، مثل: إكرام الوالدين، وبناء الرباطات، وإطعام الجائع، وإكرام الضيف، فكلُّ ذلك باطل؛ لأنَّ عقابَ كفرهم زائدٌ على ثواب هذه الأشياء، فلا يبقى لشيءٍ منها أثرٌ في استحقاق الثَّواب والتَّعظيم مع الكفر، كما يفيدُ جمعُ الأعمال أنَّهم كانوا يعظِّمونَهَا⁽¹⁾.

سبب حذف صفة ﴿أَعْمَلُهُمْ﴾:

تقديرُ الكلام: حَبِطَت أعمالُهُم التي يفتخرون بها⁽²⁾؛ لأنَّ الإحباط يكون لأعمالِ البرِّ التي يُرجى ثوابُها في الدُّنيا والآخرة لا للأعمالِ القبيحةِ المنكرة، فحذفت الصِّفة للإيجاز، وللإشعار بأنَّهم كانوا يستندون على هذه الأعمال في رجاء الثَّواب، فكأنَّ غيرَها ليست بأعمالٍ.

بلغة حذف المتعلِّق في قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾:

لَمَّا حُذِفَ متعلِّقُ الفعل ﴿حَبِطَتْ﴾؛ دَلَّ على عموم الزَّمانِ والمكانِ، ليكون التَّقديرُ: حَبِطَت أعمالُهُم في الدُّنيا والآخرة وفي جميع الأماكن؛ ليتناول حَبِطَ آثارُها في القبرِ وما بعده، وأمَّا حَبِطَ أعمالُهُم في الآخرة؛ فقد دَلَّ عليه قوله: ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، وأمَّا حَبِطُها في الدُّنيا؛ فقد أشعرَ به الأمرُ بمقاتلتهم وما يلاقونه من التَّعذيب والخزي والذُّلِّ ونصر المؤمنين عليهم؛ ليدلَّ على أنَّ عمارتهم المسجد الحرام وما صدرَ منهم من أعمالِ البرِّ ما كانت لتغني عنهم.

دلالة الواو في قوله ﴿وَفِي النَّارِ﴾:

قوله: ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، الواو فيه عاطفةٌ؛ لتفيدَ جمعهم بين حَبِطِ العملِ وخلودهم في النَّارِ، كما أفادت الواو التَّرتُّبَ، بمعنى ترتُّبِ خلودهم في النَّارِ على حَبِطِ أعمالِهِم، فيكون المعنى في الآية:

الكفرُ مُحِيطٌ
لجميعِ
الأعمالِ،
ومفسدٌ لمختلفِ
القربات

الكفَّارُ يستندون
على أعمالِ البرِّ
رجاءَ الثَّواب
وهي عند الله
باطلة

بطانٌ جميعِ
أعمالِ الكافرين
في الدُّنيا
والآخرة، وعدم
انتفاعهم بها

الكفرُ سببُ كلِّ
الآفاتِ، ومُعقِدُ
كلِّ المخالفات

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/10، وأبو السَّعود، إرشاد العقل السليم: 4/50.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/74.

ترتَّبَ حَبْطُ أَعْمَالِهِمْ عَلَى إِشْرَاكِهِمْ وَكَفْرِهِمْ، ثُمَّ كَانَ حَبْطُ الْعَمَلِ الْمُرْتَبِّ عَلَى إِشْرَاكِهِمْ وَكَفْرِهِمْ سَبَبًا لْخُلُودِهِمْ فِي النَّارِ، وَعَلَيْهِ فَقَدْ أَفَادَتِ الْجُمْلَةُ الْأَسْمِيَّةُ الْمَعْطُوفَةُ بِالْوَاوِ تَحْقِيقَ ثُبُوتِ خُلُودِهِمْ فِي النَّارِ وَالْمُبَالَغَةَ فِيهِ.

فائدة تقديم الجارِّ والمجرور:

قَدْ دَمَّ مَتَعَلِّقُ الْخَبَرِ ﴿وَفِي النَّارِ﴾ عَلَى الْمَبْتَدَأِ؛ لِلْإِهْتِمَامِ بِهِ؛ إِذْ إِنَّ فِيهِ تَعْجِيلَ الْمَسَاءِ لِلْكَفَّارِ إِذَا سَمِعُوهُ، وَلِإِفَادَةِ الْاِخْتِصَاصِ، بِمَعْنَى: فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ، وَلَيْسَ فِي غَيْرِهَا، وَأَفَادَ التَّقْدِيمُ تَأْكِيدَ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ وَتَقْرِيرَهَا، كَمَا أَنَّ فِي التَّقْدِيمِ رِعَايَةً لِلْفَاصِلَةِ⁽¹⁾.

فائدة التعبير بالضمير ﴿هُمْ﴾:

لَمَّا كَانَ الضَّمِيرُ عَائِدًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْمُوصُوفِينَ بِشَهَادَتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ؛ دَلَّ عَلَى تَقْرِيرِ سَبَبِ خُلُودِهِمْ فِي النَّارِ وَتَأْكِيدِهِ، أَيْ: هُمْ مُقِيمُونَ فِي دَارِ الْعَذَابِ - الَّتِي تَسْمَى النَّارَ دُونَ غَيْرِهَا - إِقَامَةً خُلُودَ وَبَقَاءً، لِكَفْرِهِمْ الْمَحْبُطِ لِأَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةِ⁽²⁾.

مناسبة مجيء الجملتين على الاستئناف:

جَاءَتِ الْجُمْلَتَانِ مُسْتَأْنَفَتَيْنِ لِتَقْرِيرِ النَّفْيِ السَّابِقِ، فَأَفَادَتِ الْجُمْلَةُ الْأُولَى: ﴿أَوَّلِيكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ تَقْرِيرَ نَفْيِ صِحَّةِ عِمَارَةِ الْمُشْرِكِينَ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ جِهَةِ نَفْيِ اسْتِبَاعِ الثَّوَابِ لِحَبْطِ الْعَمَلِ، وَأَفَادَتِ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَّةُ ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ نَفْيَ الصَّحَّةِ مِنْ جِهَةِ نَفْيِ اسْتِدْفَاعِ الْعَذَابِ⁽³⁾.

اختصاصُ خلودِ
الكافرين في
النَّارِ، دليل على
أنَّ لا مفرَّ لهم
منها

الكافرون
مقيمون في
النَّارِ، إقامة
خلودٍ وبقاء

الجمعُ بين نفي
استبَاعِ الثَّوَابِ،
ونفي استدفاع
العذاب
للكافرين

(1) السَّمِينُ الْحَلَبِيُّ، عمدة الحَقَاط: 6/30، وأبو السَّعُودِ، إرشاد العقل السليم: 4/50، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/141، والشَّوْكَانِيُّ، فتح القدير: 2/393.

(2) محمد رضا، تفسير النار: 10/189.

(3) أبو السَّعُودِ، إرشاد العقل السليم: 4/50.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 16، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-768-12-8

يشتمل على ارجاعات ببلوغرافية.

مج. 16: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.

1- القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-768-12-8

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»